قصة
ذاتُ
الْبَواكِي
جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي :

ISBN : 890-5556-65-89700

تحقيق ومراجعة:

الشرطي الخلّ والصديق

إهداء :

لتلك الشرذمة المتكبّرة في الشارع والتي تتجاهلني كلما مررت بقربها .

لتلك العقول المتسخة ذات الطاقة السلبية التي فاحت رائحتها .

لتلك الصداقة التي كانت غلطة عُمر .

لأولئك اللصوص المحتالين النصابين باسم الكتاب .

أدّوا الأمانات إلى أهلها ...

للدّيوث ...

أسرع بدراجتك ...أسرع .

قبّحكم الله .

أراكم من بعيد ...

جمال بن عبد الله الحيان

تقديم :

"ولعله في لحظة ما ، كانت تلك النظرات المتسائلة المكسورة ، وذلك التوتر مع تزايد ضربات القلب ، وما تبقى من الأصدقاء والأهل والوطن ، لأشعل انفعالا وحزنا في قلبي، كنت أتملى الوجوه حولي في كل ركن ومكان ، كأن شيئا داخلي استنفر وتيقّظ ، كانت أطيافا متداخلة متشابهة ، أعقب ذلك صمت هشّ ، أو بالأحرى صوت سقوط جسم ثقيل على الأرض .

خيوط خفية وراء هذا كله ، وقد صار وطني مهوى فؤادي ومسكن مهجتي ، بل أعز من بيض النوق ، فمنذ أمد غير يسير ، كان حلما جليلا ، امتدت فروعه بذلك الصقع لتصبح حقيقة وتذوب مثل جمرة حمراء ...

كان شوقا على القلب يغلي ، رغم ما اعترضنا من عقبات الصد والخصام ".

جمال بن عبد الله الحيان .

تجوب سوسن بلباسها الفضفاض شوارع وجدة ، تتوسّل باسطة يديها لأهل الإحسان ، متوّهمة أنه بذلك تستطيع أن تحقق شيئا ، وككل يوم متعب ممل تكون نهايته تحت خيمة بيضاء كبيرة ، حيث تتناسى ما حواه العالم من اضطراب غير عادي وعدم استقرار مفزع .

كان لابد أن نعترف بوضوح بما يجب الاعتراف به ، وأهمّ ما في الأمر أن يؤدي كل منا مهمته على أكمل وجه ...

كانت السماء مغبرة اللون رغم زرقتها ، وقد استيقظت كنزة باكرا كي تصلي صلاة الصبح كعادتها وتعد الفطور كما ألِفتها سوسن ، موزعة همومها بين اليأس والألم والقلق واليقين ، ففي أغلب الأحايين تستقبل إكراميات من بعض السكان المغاربة المحسنين ، القاطنين بجوار المخيم ، ممن رقت قلوبهم لحياة اللجوء والعزلة .

كانت خيامهم على بعد كيلومترات فقط من مدخل المدينة ، على مشارف الحدود مع الجزائر التي طردتهم إلى الشريط الحدودي ضاربة كل ثوابت الإنسانية والدين عرض الحائط .

خيام أثثت تأثيثا بسيطا ، واللاجئتان تجوسان خلال الشوارع الوجدية بخمول وحزن بائنين .

ذات صباح جلست سوسن إلى النّار في المدفأة تصطليها وقد كانت مقرورة ذات صباح، أتى عليها الجوع تتأمّل المكان ...

برقت عينا كنزة ، وأخذت تنظر من خلال الزجاج بعد أن عادت إليها ابتسامتها من وراء الدموع ، واستطردت :

ـــ لقد خامرني الشكّ وبدا لي ـــ وقد بلغ الثلاثين من عمره ـــ هو نفسه وجه الطفولة ذاك ، رغم كل هاته السنون ، وجهٌ جامد غطّته التجاعيد ، فلا بُدّ أن تضنيه الوحدة بكلّ تأكيد .

انكفأت سوسن إلى الخلف محاولة ضبط أنفاسها بعد أن خُيّل لها أنها وسط مئات من الجدران التي يضطرم حرّها .

نطقت كنزة :

ـــ وبالاختصار ، لا بدّ أن يكون في الأمرِ مجال لدعابة سمجة .

بشّ وجهها وأضاء ، فألمّ بسريرة نفسها ، وهي تبكي وبيدها صورة ، حتى هاجت في صدرها أحقاد ، فصارت مذهولة .

كانت تلك فترة الطفولة حين شيّعته بابتسامة بقرب محطة القطار مغادرا إلى عمله التطوعي كجندي ، بقامته المديدة ولباسه الأسود ، فارقته بابتسامة مغتصبة ، وقد تملكها الخوف والدهش .

تتذكر دائما صوته اللطيف ، ذلك المراهق الصغير ، طويل القامة ، ممتلئ الكتفين ، يبدو على وجهه التصميم ، بعينين صافيتين يبرق فيهما الذكاء .

قالت سوسن دون أن ترفع نبرة صوتها وقد غاص عنقها بين كتفيها :

ـــ لا أظن أن هذا الوجه الهائل المليء بالحفر والذي يعلوه حاجبان كثيفان ، يمكن أن يكون لولدي الصغير تامر .

بدا التعب على وجهها الذي لا يُرى عادة إلا محتقنا ، وازداد وجهها ندوبا . لقد أيقظت صورة ابنها في التلفاز ما كان ينخر جوفها من سرطانات وقروح ، وبدأ يُسمع لنفسها

صفير، ولكنّ الذي آدها وأثقلها بُعدها في بلاد المغرب ، واستحالة ربط أي اتصال بابنها في ساحات القتال .

ففي كل يوم حين تبدأ الشمس بالانسحاب، ترجع سوسن وكنزة عبر الطريق الفرعية ، تتحايلان على الأمل، تغلقان الأبواب هربا من المعركة، في غمرة الصورة الخيالية، عالقتان بين الهوة وتلك القمة .

أيام لا وجهة لها هي حياتهما ، ذكريات قاحلة ، وظلال هائمة ، معذبتين بحاضرهما ، عدوتين لماضيهما ، محرومتين من مستقبلهما .

أبواب تصر على الصمت بتأويل علامات غير محسوسة ، ونبش إرهاصات محيرة ، وكل ذلك جال مع ندى الغروب .

وبما أننا بشر فعلينا أن نعبر ــ باسم الجميع ــ عمّا عانتاه في ذلك الحنين ...

إنّه الشعور باليأس والفراغ ، ورغبة جامحة في الرجوع للوطن ، هي تلك السهام المحرقة، سهام الذكرى ...

تنساقان وراء الأوهام ، تنتظران دقة جرس عودة غائب ...

تتذكر بين الحين والآخر خطى ابنها المألوفة الذي لم يكن هناك أي حل سوى تطوعه للجيش أو الاعتقال والتعذيب ، لم يكن هناك مناص من أن تعيش سوسن في المغرب مغرّبة بعد ثورة خراب ، ولو كان بيدها شيء لعدلت أو لعدل الجميع عن ذلك كله .

هو مجرد طارئ انهارت به شجاعتهم تحت إرادتهم القوية ، ومما لا شك فيه أننا كلنا في الظروف العادية وبكل سهولة ، نؤيد تلك الإرادة ، ومع الموضوعية المحمومة ، وتلك الذكرى الأكثر إلحاحا من الواقع ...أصبحنا نادمين .

أصبحنا ندرك ــ بصورة منطقية ــ أننا رُزئنا بلدا وعشنا آلاما غير عادلة ، فصرنا إلى العبودية الهوجاء ، نألم ونأمل ...دائما .

لم تكن سوسن سوى واحدة عبّرت عما اختمر في أعماق الليالي الطوال من آلام، ونضجت في نار الانتظار والحب ، وقد انطفأ بغتة ذلك الشعور بالثورة ، وانضاف إلى سكون الأرض الكثيف .

كانت مثالا للمرأة السورية الثابتة كالطود، في حياة أقل انطواء واستسلاما ، وحنين الذكريات يزداد يوما بعد يوم ، وكل المشاعر التي كانت تملأ حياتها بدأت تموت في مخيمات وجدة ، فإن كان ضئيلا حجم الحياة هنا ، فليس لها الحق في مبارحتها ، فهي في منجى من الخطر ــ حتى هذه اللحظة ــ .

لقد انكشفت بكل وضوح وجلاء ، سيمات الطمع لدى الكثير من المحسنين ، ومما لا شكَّ فيه أن المرأة ستبقى مطمعا للرجال أبد الدهر ، ولا شك أيضا أن العذاب لم ينتهي بمفارقة الحرب ، واستنادا لما توحي به جميع المظاهر فهنا لا يقل عن تلك الحرب ، فميتة واحدة في بلدها السليب خير بألف مرة من نعيم بلد غريب ، فأمام مستقبل أسموه "القلق" ، أظن أن كل شيء لا يزال ممكنا بالنسبة لها ولهم جميعا .

تمنت سباتا عميقا لا يقطعه حلم ، فلقد هبت رياح شديدة حارقة طيلة يوم كامل ، وهي متعبة للغاية ، وكان الغروب الذي أخذ يعم محيط المخيمات يزيدها ظلمة ووحشة ، فقد انطلق الصيف من عقاله في السماء وفوق المنازل ، وهي تبتسم معترفة بالجميل لوطنها الثاني ، فقد انتهى كل شيء وعمّ الخراب كل مناحي البلاد و حان الوقت لنسيان الكثير.

ورغم ذلك كلّه فلا زالت صورة تامر فوق الساعة الحائطية بالخيمة ، آملةً رجوع عزيزا لأحضان الخراب ودفء البنوّة ...

فيا سائلي عن مذهبي وعقيدتي ...

سوسن هنا ...

على الهامش .

كلّنا للهامش ...

وسنعيش مع الآلام والجراح ...

المهم أننا سنعيش ...

ولكن ...

بدون حرب .

انتهى بفضل الله وكرمه في 6 ربيع الثاني 1442 هـ / الموافق ل20 نونبر 2020 م